جامعة وهران1 أحمد بن بلة
Université Oran1 Ahmed Benbella

م ج و

مجلة الحضارة الإسلامية

العدد 28

ISSN 1112-5357ردمد

مجلة علمية محكمة تصدرها كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية -جامعة وهران-

العدد التامن والعشرون ربيع الأول1437 جانفي2016

Islamic culture Review

Volume 28

ISSN 1112-5357ردمد

Scientific review, edited byFaculty of Humain sciences and islamic culture - university of Oran

Volume28 Rabi awal 1437 Janvier 2016

المحتويات

العدد 28

علوم إسلامية	
– إشكالية السند في رواية تفسير معنى اللفظ في القرآن الكريم بين السلف وأهل اللغة . أ.بودربالة فريد	13
– إجماع أهل المدينة والتواتر المعنوي. أ.بوقنادل عبد اللطيف	35
– التدخل الإنساني من منظور الشريعة الإسلامية والقانون أ.بوزيد عويشة	51
– التوظيف التجديدي لعادات العرب عند سيد قطب د.أمينة رابح	69
– العلامة عبد الرحمن طالب وقفات وومضات حول المنهج الاستدلالي . د.حسوني بوبكر	83
– الحماية الموضوعية للبيئة بين الشريعة والقانون أ.بركاوي عبد الرحمن	101
– حكم قراءة القرآن الكريم على غير طهارة د.عبيد بن سالم العمري	121
– الرواة الأوائل لصحيح البخاري من علماء الجزائر ط.علال بوربيق/أ.د .سليماني عبد القادر	159
– أحكام الوكالة التجارية (بين الشريعة والقانون) أ.عبد الرحمن مومني	181
– القرائن الطبية وأثرها على إثبات النسب في الفقه الإسلامي والقانون الوضعي ط.يوسف بن شيخ/أ.د.حمحامي مختار	205
– فقه الموازنات وأهميته في حياة الناس ط. معطي العيد/أ.د.زقور احسن	229
– القبض في عقد الهبة، شرط أم مجرد أثر؟ –دراسة في الفقه الإسلامي–. د. رباحي أحمد	253
– من قوانين الصحة النفسية في القرآن الكريم .د.زروالي وسيلة	287
– التعسف في الولاية على مال القاصر في الفقه الاسلامي وقانون الاسرة الجزائري ط.براهامي العيد/أ.د.داودي عبد القادر	323

تاريخ وحضارة

– الخلافة والإمامة في ضوء مقدمة ابن خلدون د.صحراوي عبد القادر	347
– فتاوى ابن مرزوق الحفيد من خلال كتاب"المعيار "قراءة إحصائية وصفية تحليلية د.عمر بلبشير	357
– رونيه فوتيه René Vautier (1928-2015) د. سعيدي مزيان	395
– تجليات قاعدة"الجزاء أثر طبيعي في العمل" عند محمد رشيد رضا في تفسيره المنار. ط. كريب يونس/د.بلخثير بومدين	397
– التوقف عند الأئمة...أسباب وآداب د. كرومي عبد الحميد	413
– خلط المنطق بالأصول بين الغزالي وابن حزم ط.غريش صادق/د.يوسي الهواري	431
– التواصل بين الشيخ والمُريد من خلال رسالة أبي عبد الله البطيوي إلى أهل الغزوات د.حبيب رزاق	459
– رمزية الكرامة ومدلولها في مناقب المليايي د.الحمدي أحمد	473
– قضايا أضرار الجوار بالأندلس من خلال كتب الفقه والنوازل د(ة)بودالية تواتية	493
– ظاهرة خراب المدن بالزاب والمغرب الأوسط أسبابها، مظاهرها وآثارها د.شخوم سعدي	515
– التراث الإباضي بالجزائر في أعمال المستعربين الأوروبيين خلال الفترة الوسيطة حنيفي هلايلي	537

دراسات

– مدى حرص المشرع الجزائري على مطابقة الرغبات المشروعة للمستهلك. د.ليلى جمعي	553

التراث الإباضي بالجزائر في أعمال المستعربين الأوروبيين خلال الفترة الوسيطة

أ.د . حنيفي هلايلي
جامعة سيدي بلعباس

الملخص :

تحاول هذه الدراسة رصد اهتمامات الاستعراب الفرنسي خلال الفترة الاستعمارية بالتراث الإباضية الوسيط من خلال شيوخ المذهب و علمائهم واتجاههم الفكري ،و مواقع المكتبات

و أهم الأرصدة الموجودة في منطقة وادي ميزاب.

وعلى هذا الأساس ترتكز الدراسة على المخطط التالي:

- تعريف الاستعراب الفرنسي و أهدافه خلال الفترة الاستعمارية.
- الشخصيات الإستشراقية المهتمة بالتراث الإباضي.
- منهجية المستعربين في التعريف بالتراث الإباضي من حيث:
- التعريف بالشيوخ.
- التعريف بالكتب و المكتبات
- تصنيف المكتبات.

وردت أخبار المذهب الإباضي و حلقات العزابة و الكتب والمكتبات والشيوخ في منطقة ميزاب من خلال دراسات المستعربين الأوروبيين خلال فترة احتلال الفرنسي للجزائر(1830–1962)، ومن بين هذه الدراسات ما كتب عن المجتمع الجزائري و القبائل ، و دراسات نشرت في مجلات متخصصة مرفقة

بوثائق، و قد عمد هؤلاء المستعربين على تحليلها و دراستها بمفاهيم خاصة يضاف إلى نشرات في دوائر المعارف العالمية و بلغات أوروبية. رصد اهتمامات الاستعراب الفرنسي خلال الفترة الاستعمارية بالتراث الإباضي من خلال شيوخ المذهب و علمائه و إنتاجهم الفكري ،و مواقع المكتبات وأهم الأرصدة الموجودة في منطقة وادي ميزاب.[1]

اهتم الإباضيون للمحافظة على تراثهم المخطوط بواسطة نظام العزابة[2] وهذا بدافع تعريف الخلف بتراث السلف. والواقع أن استمرار الجيوب المذهبية ببعض مناطق بلاد المغرب لا يفسر فقط فرار الإباضيين بمذهبهم إلى جهات لا تنالهم فيها سيوف مخالفيهم، بل بحرصهم الشديد لاستمرار إمامتهم في الكتمان وتشبثهم بطاعة أئمتهم في هذا الطور من أطوار الإمامة عندهم ، وذلك بعد سقوط تاهرت في يد الفاطميين سنة 296هـ/909م واتخاذهم نظام العزابة نمطا جديدا و استراتيجية لمواجهة التحديات الجديدة المفروضة على مذهبهم و نمط عيشهم،أما حلقة الاستمرار و التواصل لهؤلاء الإباضية ،فقد جاء عن طريق رجل ثان من الخمسة حاملي العلم من البصرة.[3] ظفيما بعد لضمان البقاء والاستمرارية و الحفاظ على وحدة الصف. ومن ثم ،فإن الإباضيين طرف أساسي لا يمكن إغفاله كلما جرى الحديث عن مسألة الخلافة ببلاد المغرب.

اقترنت المناظرات الكلامية بين الإباضية و الفرق الإسلامية في بلاد المغرب بظرفيات تاريخية معقدة، تداخل فيها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي، وجسدت تارة مرحلة الدعوة للمذهب وأخرى طور الحفاظ على الأمر الواقع. وخصت ثلاثة محاور، ذات علاقة بتأويل النص الديني، وهي الخالق(مثل مسائل خلق القرآن و التشبيه) و علاقة الإنسان به(مثل مسألة الجبر والاختيار) والعلاقة بين الإنسان و الإنسان (منها مسألة الإمامة). ودلت على تطور طرق التفكير بالبلاد المغاربية، مبينة التماهي بين الأحداث الإقتصادية و الاجتماعية والسياسية و أفكار ومواقف النخبة العالمة، كما تزامنت مع ظهور دعوات و مذاهب جديدة تارة، و أسست

لقاعدة التعايش بين مختلف الفرق طورا. فكانت طاقة متجددة للفكر ناجمة عن التنوع البشري والتطور العلمي. على أن هذه السيرورة الفكرية التي يحدها في كثير من الأحيان قوة السلطة و التعصب، لم ترق إلى مؤسسة فكرية مهيكلة و متواصلة التأثير على المجتمع المغاربي، و تحولت إلى تعبير عن انقسامية داخل المجتمع، تتجاذبها مصالح متباينة و مواقف متعارضة.

إن الدراسات الإباضية تشتغل بحقل هام من حقول التراث الديني، وهو حقل الفقه الإباضي، الذي يعد من أكثر حقول التراث الديني ارتباطا بالواقع الاجتماعي؛ حيث يشكل صيرورة وحراكا معرفيا عبر تطور موضوعاته المرتبطة بالواقع الاجتماعي، وهو بهذا يقيم علاقة معرفية عميقة بين ثلاث زوايا هامة؛ الإنسان والمجتمع والدين. إن الارتباط الموضوعي بين الإنسان والمجتمع والدين يأتي في سياق كشف العلائق التاريخية بين هذه الأنماط الثلاثة.

و خلال الفترة الاستعمارية بدأت المحاولات الأولى للمستعربين الأوروبيين خاصة الفرنسيين منهم بحكم طبيعة الاستعمار الذي كان مهتما بتراث الأمة الجزائرية في ماضيها وحاضرها. وبما أن المجتمع الإباضي جزء من الأمة الجزائرية عمل هؤلاء في فهرسة المخطوطات الإباضية و ترجمتها و تصنيفها. وكان الهدف من وراء ذلك معرفة التنظيم الاجتماعي و الديني للجماعات الإباضية بالمنطقة.

إذا قمنا برصد حركية مصطلح المستعرب فإننا سنجده لا يخرج عن معناه الذي يقصد به عادة الباحثين و المهتمين الغربيين بالتراث العربي الإسلامي ،سواء كان مشرقيا ،أو مغربيا أندلسيا. و يبدو لاصيقا بالاستشراق، و تارة أخرى يطلق على الباحثين الإسبان المشتغلين بالتراث العربي بالأندلس. ولكن ما هي الدلالة الأصلية لمصطلح" مستعرب"؟

نشأ هذا المصطلح منذ الفترة الأولى في الأندلس، ويطلق مصطلح(Arabismo) ليفيد معنيين أو دلالتين، فهو في معجم اللغة الإسبانية يدل على مفردات و عبارات اللغة العربية المستعملة و المتداولة في لغات أخرى.

عبر عوامل التجارة و الاحتكاك والاستعمار، و التواصل الثقافي. كما يعد المصطلح من الناحية الثانية، تلك الدراسات التي تقام حول اللغة والثقافة في شتى تجلياتها من قبل باحثين غير عرب.[4]

عرف الفكر الإباضي بأئمته وعلمائه الذين حاولوا أن يبنوا قواعد حركة وجاهدوا في إرساء أصوله الفكرية ، فألفوا في مسائلة الفقهية والكلامية وكتبوا في مسيرته الحضارية والتاريخية ، ولكنهم كشأن أي حركة دينية ذات طابع سياسي واجهوا المطاردة والملاحقة من خصومهم منذ ظهور هذا الفكر على الساحة السياسية. من بين المستعربين الأوروبيين الذين اهتموا بالتراث الإباضي المخطوط شخصيات من جنسيات فرنسية

و أخرى ألمانية و بولونية. و هذا الاهتمام تميز بالكتابة التاريخية الممنهجة وفق قواعد أصول البحث العلمي الحديث المعتمد على استنطاق كم هائل من الوثائق و النصوص و المخطوطات. كما ركزت الإستغرافية الأوروبية المستعربة على التراث الإباضي في تناولها للكتب و المؤلفين و الرواة على ثلاثة أدوار محاور رئيسية يمكن إجمالها كالآتي:

- دور الشيوخ في نشر المذهب و تأليف الكتب.
- ظهور فئة متميزة من البيوتات الإباضية التي أطرت نظام العزابة.
- مكوث المستعربين في المناطق التي يسكنها الإباضية للوقوف على معرفة أصول المذهب من خلال المخطوطات.

تعد الحركة العلمية ظاهرة أساسية في كتب الإباضية، فهي ذات دلالة على التاريخ الثقافي للعالم الإسلامي و سبيل لتجسيد روابط العلم و تبادل المعارف بين إباضية المشرق و المغرب، و السعي في الاطلاع على ما عند الشيوخ من أسانيد وروايات و تأليف. وقام العلماء الإباضية بدور كبير في توثيق هذا التبادل العلمي وإثراء التراث العربي الإسلامي بالبحث والتدريس والتنقيب على

الكتب. ومنذ أن قام حملة العلم الخمسة برحلتهم إلى المشرق للأخذ من أبي مسلم أبي كريمة التميمي، لم تنقطع الصلات الفكرية بين المجالين. وفي هذا السياق اهتم المستعربون الأوروبيون بدراسة التراث الإباضية خلال الفترة الاستعمارية، من خلال إدراكهم لأهميته العلمية ، و كانت رغبتهم ملحة في التعرف على أسرار المذهب و تأليف شيوخه. واعتبارا لأهمية هذه الظاهرة العلمية خصصت لها مبحثا يتطرق إلى إسهامات هؤلاء المستعربين.

1- تادايوش، ليفيتسكي (Tadeusz Lewicki)

يعتبر المستشرق البولندي ليفيسكي (1906-1992م) الذي عاش أكثر من ثلاثين عاما يدرس الإباضية في الشمال الأفريقي من أكبر المستشرقين المهتمين بالتراث الإباضي المخطوط. وقد كتب العديد من الدراسات التي تصل إلى أكثر من ثلاثين دراسة ما يزال معظمها غير منشور. كما أنه لم يكتف في دراساته بالتراث الإباضي في الشمال الأفريقي وإنما له دراسات أخرى كتبها عن إباضية المشرق، كتلك الدراسة الموسومة بـ Les ibadites dans l'Arabie du sud au Moyen-âge، وغيرها من الدراسات الأخرى التي قدم فيها ليفيتسكي صورة الإباضية للعقل الأوروبي .

لقد اشتغل ليفيتسكي مترجما للجيش الفرنسي خلال الحقبة الاستعمارية للجزائر بشكل خاص والشمال الأفريقي بشكل عام، ومع ذلك فإنه لم يتأثر بالفكر الإمبريالي في دراساته عن الإباضية، فمعظم الدراسات التي كتبها باللغة الفرنسية كانت دراسات جادة في مادتها العلمية.

يتقن هذا المستشرق اللغتين العربية و العبرية إلى جانب الفرنسية، كلفته الإدارة الاستعمارية الفرنسية للقيام بأبحاث حول منطقة ميزاب سنة 1934، وتوجت أعمال بأن أصبح أستاذ كرسي للدراسات الإسلامية بجامعة لوو(Lwow) منذ 1934 ببولونيا. كما انتخب عضوا للأكاديمية الفرنسية للعلوم ما وراء البحار منذ 1975. يعد ليفيسكي من المستشرقين الأوائل الذين درسوا الفكر الإباضي في القرن العشرين، ولهذا فإن معظم الدارسين وإلى يومنا هذا ما زالوا أسرى أعماله وبحوثه ودراساته. إن الجهود العظيمة التي

قام بها ليفيسكي في التعريف بالمدرسة الإباضية؛ بل في نشر تراثهم وتحقيقه والاحتفاظ بكثير من المخطوطات التي ما تزال حاضرة إلى اليوم.

نستخلص من الملاحظات التي قدمها ليفيتسكي في دراسته حول المؤرخين وكتاب السير و الرواة الإباضيون الوهبيون في إفريقيا الشمالية من القرن الثامن وحتى القرن السادس عشر.(5) أنه قدم لنا معلومات بيبليوغرافية عن جميع المؤرخين والكتاب الإباضيين في المغرب ، وحدد المصادر القديمة بـ 11 مجموعة تمثلت في : الأخبار التاريخية عن أئمة الرستميين في تاهرت لابن الصغير، و أخبار أبي زكرياء الورجلاني، وسير المشايخ، و كتاب السير لأبي الربيع الوسياني، و طبقات المشايخ لأبي سعيد الدرجيني. وعرض في نهاية دراسته مسرداً بأسماء المؤرخين و الكتاب و الرواة الإباضيين الوهبيين في بلاد المغرب وعدهم بـ 134 مع التركيز على ذكر صفة التأليف والرواية والتأريخ.

والجدير بالملاحظة أن أخبار المذهب الإباضي وقيمة التأليف والكتب المخطوطة هو ما دفع السيد ليفيتسكي بالإشارة إلى قيمة الرصيد المكتبي للإباضية بالجزائر من خلال حضوره في المؤتمر العالمي الخامس و العشرون للمستشرقين المنعقد بموسكو في سنة 1960. كما تحدث عن دور الدعاة الإباضية ورحلات القوافل التجارية في نشر تعاليم الإسلام في بلاد السودان الغربي.(7)

2- مساهمة ريني باصيه (1855–1924)(Basset Joseph René)

كبير المستشرقين الفرنسيين و مدير مدرسة الآداب في الجزائر وعميد كلية الآداب بجامعة الجزائر حوالي أربعين سنة(8). كان في خدمة الإستشراق الفرنسي في الجزائر إذ سخر لخدمة الإدارة الاستعمارية بكل حرص و تفان،و جند الفرنسيين و الجزائريين معاً ووظفهم للتدريس و البحث و التأليف و النشر. وكانت الحكومة العامة تعاطه بالمال للقيام بأبحاثه و أبحاث تلاميذه و بعثاتهم ورحلاتهم. وقد توجته الإدارة الفرنسية سنة 1905 برئاسة مؤتمر المستشرقين الدولي 14 في الجزائر. (9)

كان باصيه يتقن عدة لغات(العربية و الأمازيغية و الفارسية و التركية) فعمل أستاذا بمدرسة الآداب بالجزائر سنة 1885 ثم عين مديراً لها سنة 1894، ليصبح عميد كلية الآداب بجامعة الجزائر سنة 1911. ترك إنتاجاً غزيراً لاسيما في الدراسات العربية و البربرية وقد ترجمت أعماله تكريما له من طرف تلاميذه و أصدقائه و قد نعاه في تأبينية كل من ألفريد بيل(Bel, A) وليفي بروفنصال(Provençal) [10].

كان باصيه يتجول في الجزائر بحثاً عن المكتبات و المخطوطات، وهي عدة المستشرقين. و قد ترك وصفا لفهارس المكتبات في بعض الزوايا والمناطق و منها بعض المناطق في الصحراء الجزائرية [11]. وفي هذا السياق صرح إدمون دوتيه(Edmond Doutée)في إحدى ورقاته حول العمل العلمي لمدرسة الآداب بالجزائر:" إن الإستشراق هو بالطبع الحقل الرئيسي للدراسات في مدرستنا، و من داخل الإستشراق تأتي اللغة العربية و المسائل الإسلامية" [12]. و إذا بحثا في الممهدات التاريخية للإستشراق و محور مدرسة الآداب بالجزائر فإنها أثرت بشكل كبير على الدراسات الإستشراقية الفرنسية.

ركزت أعمال باصيه حول المخطوطات العربية بشكل خاص، و هو ما لاحظناه في معظم دراساته. كما اهتم باصيه بالمخطوطات العربية و مكتبات وادي ميزاب. كما قام باصيه وادي ميزاب، بتزكية من الحاكم العام لويس تيرمان(Louis Tirman) (1881-1891). [13]

مساهمة كلاسنتي موتيلتنسكي(1857 -1907) (A. de Calassanti - Motylinski)

أشاد هنري ماصيه (Masset,H)بعبقرية موتيلنسكي في ميدان الترجمة، وعده من فطاحل علماء الإستشراق الفرنسي. عمل مترجما عسكريا في بوسعادة

سنة 1875، ثم انتقل بعدها للعمل بغرداية حيث بدأت ميوله تتجه نحو التراث الإباضي.عين مديراً لمدرسة قسنطينة سنة 1887، ثم أستاذ كرسي للغة العربية بنفس المدرسة ما بين (1889–1906) (14).

أنتج موتلنتسكي تراثاً غزيراً في مجال ترجمة النصوص العربية و الاهتمام باللهجات البربرية و خاصة في منطقة وادي ميزاب و جزيرة جربة بتونس و جبل نفوسة بليبيا. ساعده في ذلك معرفته الجيدة باللغتين العربية و الأمازيغية (15). لاحظ كثير من المهتمين بالتاريخ الإباضي أن الفضل يعود لهذا المستشرق في ترجمة فهرسة الشيخ أبو القاسم بن إبراهيم البرادي حيث تحتوي فهرسته على ثمانية كتب تضم تراث الشعب الإباضي منذ بداية الدعوة إلى غاية القرن التاسع الهجري، الرابع عشر الميلادي وهي تتوزع على الشكل التالي(16):

- كتب إباضية المشرق : 33 كتاباً.
- كتب إباضية جبل نفوسة: 12 كتاباً.
- كتب إباضية الغرب: 37 كتاباً.

لاحظ موتيلنسكي أنه منذ أن نشر ماسكاريه كتاب سير أبي زكريا و عمل على ترجمته إلى الفرنسية سنة 1878، بدأ الاهتمام يتزايد بالمخطوطات الإباضية وخاصة في منطقة ميزاب. (17) مما لاشك فيه أن العمل البيبليوغرافي الذي أنجزه موتيلنسكي حول التآليف الإباضية كانت مهمة بالنسبة للتراث المخطوط من حيث الأهمية الدينية و الفكرية.فمن أهم كتب المشرق:- كتاب أحداث عثمان بن عفان- كتاب عبد اله بن أباض- الفرائض لإبن عبد الجبار- مسند ابن أبي الربيع- كشف النعمة في اختلاف الأئمة(18).

وقد أشار موتيلنسكي في سرده لكتب الإباضية لجبل نفوسة و الجزائر إلى وجود كتب في غاية الأهمية منها : جوابات الأئمة- نوازل الإمام أفلح- كتاب

في الكلام و أصول الفقه- كتاب السير و أخبار الأئمة لأبي زكريا الورجلاني- ترتيب في صحيح) حديث رسول الله(ص) برواية ربيع بن حبيب. [19] يستعرض المستشرق في دراسته مع التراث الإباضي ،انطلاقا من نماذج لكتب إباضية مهمة،بدأها مع ترجمتها إلى الفرنسية مع التعليق عليها و عرض مواد فهرستها وهي على النحو التالي:

- جزء من كتاب ابن الصغير في أخبار الأئمة الرستميين.
- كتاب السيرة و أخبار الأئمة لأبي زكريا يحيى الورجلاني،و قدم لنا فهرسا لمواده التي بلغت 97 مادة و قال بأن نسخة من الكتاب موجودة عند أحد الخواص بورجلة. [20]
- طبقات المشائخ لأبي العباس الدرجيني وبلغت مواد فهرسته بـــ 113 مادة.
- كتاب الجواهر المنتقات و تمام ما أحلى بكتاب الطبقات لأبي القاسم بن إبراهيم البرادي ووجد النسخة بجربة و موادها بلغت 134 . [21]
- كتاب السير لأبي العباس أحمد الشماخي، توفي سنة 928هـــ/1522 وبلغت فهارس مواده بـــ 566 مادة.

و اللافت للانتباه أن موتيلنسكي وضع كشافا لأسماء القبائل ببلاد المغرب المذكورة في كتاب السير. [22] وقد لعب المستشرقون دوراً في احتلال الصحراء ومعرفة لهجات أهلها و معاشهم،ومن أبرز الذين ساهموا في ذلك موتيلانسكي. الذي ولد في معسكر، و تربى في بيئة عربية، و درس في ثانوية الجزائر.و أصبح من المترجمين العسكريين. و تنقل بهذه الصفة في مختلف أنحاء الجزائر، وعمل حتى في تونس. وقد بقي خمس سنوات و هو مترجم في ميزاب بعد احتلالها(1883). و هناك درس حياة أهلها و تعرف على علمائها، و لاسيما الشيخ أطفيش ، واطلع على تراثها العلمي و لاسيما الفقه الإباضي. و جعل من ميزاب محطة للاهتمام بإفريقية و قوافل الصحراء و معرفة لهجة غدامس. و منذ 1887 أصبح مديراً لمدرسة قسنطينة الشرعية الفرنسية التي كان عبد القادر المجاوي من أبرز

شيوخها.وقد أبنه رونيه باصيه في المجلة الأسيوية و ذكر أنه كان ضليعاً باللغة العربية على غرار سابقيه الذين زاروا منطقة ميزاب و يقصد مسكاريه و هنري دوفريي(1840-1892)(Henri Duveyrier)كما ساهم بورقة علمية(سير ابن الصغير بتيهرت) في المؤتمر العالمي الرابع للإستشراق المنعقد بفلورنسا الإيطالية سنة 1878. (23)

2- مساهمة جوزيف شاخت(1902-1969) (Joseph Shacht)

اهتم شاخت كثيرا بالتراث العربي الإسلامي في مكتبات الصحراء الجزائرية وخاصة مكتبات التراث الإباضي. و هو الأمر الذي أهله لزيادة منطقة وادي ميزاب في شهر ديسمبر 1952، حيث قام بجولة استطلاعية للمنطقة فوجد كل الترحاب من أهل ميزاب حسب تعبيره ،وخاصة من علماء الإباضية الأوفياء الذين فتحوا له نوافذ الجوامع و منازلهم و مكنوه من الاطلاع على مكتباتهم. (24)

والواقع أن زيارة شاخت لمكتبات الإباضية مكنته من إعداد فهرسة تتضمن 151 كتاب ما بين مخطوط و مطبوع .و قد أورد شاخت ملاحظات حول هذه الفهرسة بأنها تضم فقط كتب العلوم الإسلامية و تاريخ بني ميزاب المحفوظة في مكتبة القطب الشيخ محمد بن يوسف أطفيش، و ملحق مكتبة الغنية في بني يزقن، و عمل شاخت على فحصها و مقارنة كتب الخزانتين مع التعليق عليهما و الخروج بتصنيف منهجي بتسعة ميادين :(25)

جدول الكتب الإباضية حسب تصنيف شاخت:

التصنيف	عدد الكتب
1-التفسير و القراءات	05
2-الحديث و السيرة	08
3-أصول الفقه	02
4-كتب كبرى للفقه	33

5-فقه: مسائل فرعية	26
6- عقيدة و فلسفة	32
7-الردود و الدعاية	14
8-أخلاق و عبادات	18
9-تاريخ	13
المجموع	151

وخلال زيارة شاخت لمنطقة وادي ميزاب لاحظ العديد من مكتبات الشيوخ التي حافظت عليها عائلاتهم من الضياع و المصادرة و جعلتها وقفاً للعائلة. و الجدول التالي يبين لنا أهم مكتبات الخواص في المنطقة. (26)

جدول مكتبات الخواص بمنطقة ميزاب أثناء الفترة الاستعمارية:

المدينة	صاحب المكتبة
بني يزقن	-الشيخ محمد بن يوسف أطفيش. -الشيخ صالح بن عمر اليسجاني. -الشيخ عبد العزيز الثميني. -الشيخ سعيد بن يوسف. -الشيخ ابراهيم بن باكير.
مليكة	-الشيخ يحيى بن صالح. -المعز أحمد بن يوسف. -الحاج أحمد بن صالح.
العطف	-الشيخ عمر بن حمو. - الشيخ داود بن يوسف

القراراة	-الشيخ بلحاج قاسم.
بريان	-الشيخ الطرابلسي. -الشيخ عبد الرحمن باكيللي.

حاولت بعض الدراسات القيام بجرد وتصنيفات مكتبات منطقة ميزاب وهو العمل الذي قام به الباحث إبراهيم فخار(أستاذ بجامعة وهران سابقاً) إذ عمل على تصنيف مكتبات مدن ميزاب التالية: وخرج من ذلك بـــمدونة أولية تمثلت فيما يلي: 36 مكتبة، منها 18 في بني يزقن، و 10 في العطف، و 8 في القرارة، ووضع بطاقات مفرسة لهذه المكتبات و ركز كثيراً على مكتبة الشيخ أطفيش وقد قسم المكتبات في المدن الثلاث إلى خاصة و عائلية، و ذكر منها مكتبة العزابة، و أنه من خصائص هذه المكتبات أن أصحابها يغارون عليها ويخشون عليها من الزوار[27].

وتعد مكتبة اطفيش من أكبر المكتبات في المنطقة، وتوجد في بني يسقن. وفي دراسة كتبها المستشرق يوسف شاخت عن مكتبة أطفيش هناك تفاصيل هامة عن محتوياتها و أقسامها. فهي مكتبة تضم معظم مؤلفات الشيخ أطفيش، مخطوطة و مطبوعة، بالإضافة إلى الكتب النادرة في مختلف المذاهب، ومنها المذهب الإباضي، و جمله ما فيها حوالي 1.550 كتاباً. وتحدث شاخت عن مكتبة الغناي الملحقة بالأولى، و قدر شاخت محتويات مكتبة الغناي بـــ 275 مجلداً.و تحدث شاخت عن محافظ المكتبة محمد بن يوسف أطفيش حفيد الشيخ الذي وضع فهرساً مفيداً للمكتبتين، سلمه المحافظ نسخة من فهرس المكتبة حول الكتب الإباضية، ثم جردها شاخت من كتب الفلسفة و الأدب والدين و الشعر، ثموها على تسعة أبواب[28].

5- مساهمة إميل مسكاراي (Emile Masqueray)(1843-1894)[29].

مستشرق من طراز إميل ماسكاراي الذي انصبت جل أبحاثه حول تاريخ منطقة وادي ميزاب و المذهب الإباضي طوال مشوراره الأكاديمي . لقد عمل أستاذا بمدرسة الجزائر ما بين 1873-1875، و أستاذ كرسي للتاريخ القديم

لشمال إفريقيا ، كما نشر العديد من الدراسات في المجلات الفرنسية المتخصصة منها المجلة الإفريقية بـــ 14 مقال.أنجز أطروحة دكتوراه حول المدن و السكان المستقرين بالجزائر منها مدن ميزاب حيث تحدث عن القوانين والنشاط العمراني و التاريخ الديني عند الإباضية في منطقة ميزاب .[30] وبالنظر لمعرفته بالمناطق الصحراوية كلفته الإدارة الفرنسية من خلال الحاكم العام الفرنسي شانزي(Alfred Chanzy)(1873–1879)، و وزير المعارف الفرنسي ، للقيام بزيارة ميدانية لمنطقة الأوراس و وادي ميزاب في 13 أبريل 1878.و في رسالة بعث بها إلى كاتب الجمعية الجغرافية لمدينة الجزائر هنري دوفريي يخبره بأنه سيعود من رحلته بمنطقة ميزاب التي استغرقت زهاء 60 يوماً زار خلالها المدن التالية: متليلي،القرارة و بريان، و عاد بوثائق ثمينة أهمها:

- سير أبي زكريا. [31]
- سير المشايخ.
- كتاب العبادات لأبي زكريا. و وثائق حول المذهب و المجتمع الإباضي في منطقة ميزاب.

وخلال رحلة ماسكاريه إلى الصحراء الجزائرية أوضح دور علماء وادي ميزاب في تشجيع العلم و المحافظة على الكتب والمكتبات وتشجيع اقتنائها. كما قام ماسكريه بالتعريف عن المجتمع الميزابي وتنظيماته الدينية والاجتماعية والعمرانية و التجارية من خلال سلسلة من المحاضرات التي عقدها في فرنسا سنة 1879.[32]

مساهمة زيغمونت سموغورزفسكي(1884–1931)(Smogorzewski, (Zygmunt

اهتم هذا المستعرب البولوني بالتراث الإباضي فقام برحلة استكشافية لعدة مناطق إسلامية (مصر–تونس–ليبيا) و أخير منطقة ميزاب ما بين أوت

1925 و فيفري 1926 حيث درس و صور 40 مخطوطا، وخلال تواجده بالجزائر ربط علاقات صداقة مع عميد المستشرقين الفرنسيين رونيه باصيه والعلامة الجزائري محمد ابن أبي شنب

(1869–1929)، و ناقش معهم الكثير من القضايا التي تهتم بالتراث الجزائري. وعلى إثر رحلاته إلى منطقة ميزاب لدراسة تراث المنطقة عبر مكتباتها، تمكن من تجميع [illegible] ببليوغرافية عن المؤلفين الإباضيين من مختلف حقول المعرفة من علماء و فقهاء و كتاب سير و فلاسفة سواء علماء المذهب المشارقة في البصرة و عمان أوعلماء المغرب[33]

جمع زيغمونت في ببليوغرافيته حول المذهب الإباضي مجموعتين: الأولى : [illegible] مخطوطا شملت العقيدة و الفقه لمشائخ إباضية من المغرب كان موتيلنسكي قد أهداها لمكتبة الجزائر مابين 1884–1885. و كانت مهملة من طرف الباحثين من حيث الدراسة والتحليل و هو ما أشار إليه زيغمونت في دراسته. أما المجموعة الثانية وهي في غاية الأهمية فتحتوي على 40 مخطوطا تتناول في معظمها قضايا تاريخية لعلماء إباضية من المشرق والمغرب. وقد جمع هذه المخطوطات تصويراً وأهداها لمكتبة لوو (Lwow)في فرصوفيا ببولونيا.([34]

وبفضل جهوده الإستعرابية في التعريف بالمذاهب الإسلامية في شمال إفريقيا شارك في المؤتمر العالمي السابع عشر للمستشرقين بأكسفورد بإنجلترا(25أوت–1 سبتمبر 1928)، و قدم خلالها محاضرة حول ببليوغرافيا الإباضية الوهبية.[35] و قد قدم مقاربات لا تنطلق من دراسة مقارنة لما جاء به شاخت و موتيلنسكي و ماسكاريه فقط ، و إنما هي محاولة لرفع الحصار المضروب على التراث الإباضي المغمور و إعطائه الأهمية العلمية في الدراسات الإسلامية.

ويحسن بنا في الختام و بهذا الجرد الجرد السريع أن التراث المخطوط للمذهب الإباضي كبير إلى درجة أنه من رجع إلى سير الشماخي ، أو جواهر البرادي ، أو ملحق

السير لأبي اليقظان يتأكد من هذا التراث المعرفي الواسع ، فمن خلال عناوين هذه المؤلفات يدرك أن الإباضية ألفوا في مختلف العلوم الإنسانية ، وأنهم كتبوا في شتى ضروب المعرفة ، ولعل بعض البيبلوغرافيات الحديثة مثل تلك التي قام بإعدادهما لفتسكي ، أو شاخت أو غيرهما من الأوروبيين تساعد على تصور نصيب الإباضية ومكانتهم في هذا المجال . على أنه لو قام أحد بإحصاء جميع الكتب التي ألفها أصحاب هذا الفكر ونسبتها المئوية إلى عددهم ، ثم فعل مثل ذلك في بقية المذاهب ، ثم قارن بين نسب الجميع ، لوجد نسبتهم من أعلى النسب إن لم تكن أعلاها ، على أن الكثير منها ضاع للملاحقة السياسية التي لم تتوقف في أي زمان عن مطاردتهم ومضايقتهم بشتى الأساليب والصور ، حتى بلغت في مداها أحيانا حرق الكتب والمكتبات ، وفي أحيان كثيرة تكون أصابع الفقهاء المتعصبين وراء أجهزة السلطة، وإلى الآن لا تزال أكثر كتب هذا الفكر وأهمها مجهولة حتى عند أصحابها أنفسهم

الهوامش :

(1) ترتكز هذه الدراسة على المستعربين التالية أسماؤهم: ماسكاراي- كاتلنسكي- باصيه- شاخت- زيغمونت سموغورزفسكي- غروسمان.كما اهتمت المستعربة الفرنسية غواشون(GOICHON, Amélie) (1894-1977)، بالمجتمع الإباضي بمنطقة ميزاب حيث نشرت دراسة حول المرأة الميزابية، انظر: GOICHON, Amélie-Marie, La vie féminine au m'zab étude de sociologie musulmane, Paris ,Librairie orientaliste PAUL GEUTHNER,2 Vol,1927-1931, 348p.

(2) تكونت حلقة العزابة عام 409هـ /1018م ، على يد المفكر المبدع أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطاني النفوسي (ت 440هـ/1049م على أرض الجزائر، ،فهو الذي أسس الحلقة و رتب قوانينها من أجل الحفاظ على استمرار المذهب الإباضي. وقد عدد الورجلاني كل شيوخ الإباضية(أئمة الكتمان) الذين أشرفوا على تدبير شؤون الإمامة و حافظوا على الدعوة إلى أن ظهرت الحلقة. وقد مكن نظام العزابة المذهب الإباضي من ضمان استمراره ببلاد المغرب على الرغم من المحاولات المتعددة للقضاء عليه التي قام بها كل من الشيعة الفاطميين و الأنظمة السنية التي أتت بعدهم، و كان بحق ردة فعل متقنة التنظيم محكمة الأبعاد و المرامي لأنها ضمنت للإباضية، التلاحم ووحدة الصف و مكنتهم من مواجهة مختلف أشكال المضايقات التي مارسها عليهم مخالفهم في المذهب. للمزيد يرجى مراجعة:

Ibid.pp.36-38

Ibid.pp.38-46

Ibid.pp.47-65

René Basset, « Nécrologie :Calassanti Motylinsky »,In,Journal Asiatique Mai-Juin 1907,Dixième serie,T9,pp.537-541.

Shacht,J. « Bibliothèques et manuscrits abadites », In , R. A., n° 100, 1956, p. 376

(25) يعد شاخت أحد رواد الدراسات الإسلامية خاصة ما يتعلق بالمذاهب الإسلامية و الفقه الإسلامي. وقد أسس إلى جانب روبير بريشنيك(1900-1901) Robert Brunschvig مجلة دراسات إسلامية سنة 1953.: Studi Islamica، ينظر: عبد الرحمن، بدوي، موسوعة المستشرقين،ط3،بيروت:دار العلم للملايين،1993،ص 268.

Ibid,pp.375-398.

(26) Ibidem.

(27) نشرت هذه الدراسة في إبراهيم ،فخار:" المكتبات الخاصة بالصحراء الجزائرية"، دفاتر التاريخ المغربية، العدد 1، جامعة وهران، ديسمبر، 1987 ،ص ص 26-31.

(28) Shacht,J,op.cit.pp.375-398.

(29) حول حياته و نشاطه العلمي في الجزائر أنظر نص التأبين أثناء وفاته بسكتة قلبية سنة 1894:

- Bernard, Augustin , « Emile Masqueray », In ,R.A, n° 38, 1894, pp. 350-37.

لقد أبنه ألفريد رامبو في المجلة السياسية و الأدبية بدراسة أبرز من خلالها نشاطات ماسكري و ذكر بأنه رائد الدراسات الإفريقية في زمانه بالجزائر، انظر:

- Alfred Rambaud, « Un pionnier d'Afrique », *Revue politique et littéraire (Revue bleue)*, n° *6, 4e* série, t. 111, *9* février *1895.pp.162-168.*

E.Masquarey,Formation des cités chez les population sédentaires de l'Algérie,éd,Ernest leroux,Paris,1886,pp.57-72/*173-203.*

Masqueray, Emile , Chronique d'Abou Zakaria Publier pour la première fois ,traduit et commentée ,Alger, imprimerie de l'association ouvriére,1878

نشر هذا الكتاب في الجزائر: أبي زكريا يحيى بن أبي زكريا، كتاب سير الأئمة و أخبارهم المعروف بتاريخ أبي زكريا، (تحقيق: إسماعيل العربي)، ط3،الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية، 1984، 308ص.

(31) تحدث ماسكريه في أطروحته عن سير أبي زكريا و تناول بإسهاب تأريخ المذهب الإباضي منذ بدايات التأسيس، و لاحظ بأن مجتمع بني ميزاب من بين المجتمعات السرية جدا في تعاملهم مع الآخرين، و أن تاريخ ماضيهم و حاضرهم مستودع في مخطوطات و كتب يحتفظ بها شيوخ المذهب.

و هو أول المستعربين الفرنسيين الذي استعمل مصطلح الوهابة الإباضية. للمزيد راجع:

Masqueray, Emile , Chronique,Introduction.XIII.op.cit.

(32) نشرت هذه المحاضرات في نشرية جمعية النورموند الجغرافية:

Masquarey,E,« Les Beni-Mezâb » »,In, *Bulletin. Société. normande de géographie, Paris,* 1880 : 65-92.

(33) ينظر الدراسة القيمة للباحث الجزائري علاوة عمارة حول مجموعة السير الإباضية الوهبية ، و قد تناول بعض إسهامات المستعربين في تجميع البيليوغرافيا الإباضية و التعريف بها ، و من هؤلاء ماسكاريه و شاخت و سمورزفسكي. يرجى مراجعة:

Allaoua Amara, « REMARQUES SUR LE RECUEIL IBĀḌITE-WAHBITE SIYAR AL-MAŠĀ'IḪ sur », In, Revista del Ārea de Estudios Ārabes e Islāmicos de la Universidad de Cādiz .n° 15 ,2008,pp. 31-40

(34) Essai de Bio-bibliographie *Ibadite*-Smogorzewski, Zygmunt , « », Browsing Rocznik Orientalistyczny, T. 05, *Wahbite. Avant-propos* (1927), *Polskie Towarzystwo Orjentalistyczne*, 1929).pp.45-57

(35) Ibidem.